حديث الشاي والأستكان د.فوز النعيمي

عرف الصينيون الشاي منذ ما يزيد على 1500 سنة، أما اسمه فكان يختلف من مقاطعة إلى أخرى ففي بعضها يدعى بالـ "تاي" وفي أخرى يسمونه "الجاي" ثم اختلطت الكلمتان وجاءت التسمية بـ "الشاي"وقد أستحدث الأنكليز كلمة"تي" المعروفة بالأنكليزية من مصدرها "التاي". انتشرت هذه التسميات من الصين إلى سائر أنحاء العالم أدخلها المستعمرون الأنكليز والهولنديون إلى أوربا في القرن السادس عشر إذ أنهم أسسوا مزارع الشاي في الهند وسيرلانكا وجاوا وأضحت تجارة الشاي معروفة ومربحة، واليوم تستورد بريطانيا وحدها مايزيد على الخمسة أطنان سنوياً. والشاي مقوٍ عامٍ ومقوٍ للدماغ ومضادٍ لتصلب الشرايين ومدررٍ ومسهلٍ لعملية الهضم وقابضٍ في نفس الوقت، وقد اثبتت الدراسات صحة فائدته كما يُقال بأنه يفيد في منع الأصابة بالسرطان ويمنع امتصاص الحديد في الأمعاء.

أما علاقة العراقيين بالشاي فهي قديمة ولها طقوس، فنحن نقول "الجاي" بالجيم المعشقة بدلاً من الشاي وقد أدمن أهل العراق تعاطي الشاي إدمان المدخن على تدخين السيكارة والتبغ، وقد جاء الأحتلال البريطاني للعراق قبيل الحرب العالمية الأولى 1914 -1918 بتلك العادة، وأصبح الشاي قيمة اجتماعية في حياتنا اليومية تُقاسُ به درجة احترام أي زائر ومستوى تقديره ومكانته حتى أن أي ضيف يزورنا في البيت أو في محل العمل أو في الدوائر الرسمية ولا نقدم له "إستكان" شاي يعد ذلك نقصاً في الحفاوة والترحيب وربما تجاهلاً وعدم تكريم بـ "استكان جاي" على الأقل.

جلسات السمر لا تحلو إلاّ بالشاي، والعوائل العراقية غالباً ما تتحلق حول صينية الشاي أو "السماور"حيث تدور أقداح الشاي ودوارق الماء المغلي ناهيك عن"السماور" المنتصب وسط "اللمّة"، وبين الحين والحين تدور قارورة السكر ليأخذ كلٌّ حاجته منه، والقارورة هذه غالباً ماتكون "شكردان" أنيق من الزجاج الملون والمنقوش وهو على شكل إناءٍ "كاسة" ترتقع على عمود زجاجي يتصل بقاعدة زجاجية أيضاً ثم دخل الستيل حياتنا الأجتماعية تصنع منه عدة ولوازم الشاي من قوري وكتلي وسماور وصينية وشكردان...الخ. وعندما جاء الهنود مع الأحتلال الأول، كانوا يطلقون إسم "بيالة" على قدح الشاي وهي تسمية هندية-آرية بمعنى قدح أو كوب ولا زالت مناطق شمال العراق تسمي استكان الشاي بيالة "بتعشيق الباء". أما كلمة "إستكان" فأصلها إنكليزي حيث كان الجنود الأنكليز أيام الأستعمار الأنكليزي للهند يعودون بإجازاتهم إلى بريطانيا ومعهم "بيالة" الشاي الهندية،ولأن الأنكليز يتناولون الشاي بـ "الكوب" وهو فنجان زجاجي كبير يوضع في طبق من ذات اللون والطراز، وتميزاً للبيالة الهندية عن الكوب الأنكليزي أطلق هؤلاء على القدح اسم "إستكان"وهي تسمية من ثلاث مقاطع:

(Can - Tea – East) يعني: إناء شاي شرقي، وهكذا جاء الجنود الأنكليز بهذه أي: (إيس – تي - كان) اللفظة إلى العراق، ولأن كل ما يتعلق بالشاي كان من الأمور الجديدة الدخيلة على الحياة الأجتماعية فقد أخذ العراقيون لفظة استكان مدغمة متصلة للسهولة والدلالة، ومازال الكثير من العراقيين لا يتذوقون شرب الشاي إلاّ بالأستكان رغم أن البعض يشربه بالكوب والآخر بـ "الكلاص" بينما رأينا المصاروة في العراق يتناولونه بقناني معجون الطماطة الزجاجية الفارغة، ولاشك أن هناك طرق عدة لأعداد الشاي وغلي الماء أفضلها دائماً "تخديره" على نار الفحم بدلاً من الغاز أو الكهرباء أيام توفرها جميعاً!!!، وعملية التخدير هذه، أي غليه حتى ينضج وتفوح رائحته، ومن هنا جاءت الأغنية الشهيرة "خدري الجاي خدري" فتجيب المطلوب منها التخدير وهي عادة ما تكون

"ربة البيت" بالقول "عيوني المن أخدره"، وشاي الفحم يدل على الأصالة والذوق وهو مفضل مثل خبز التنور، ويحسن طعم الشاي بالخلط، أي بخلط عدة أنواع، وكان لوزارة التجارة في بغداد معمل لخلط الشاي، ولا يستسيغ العراقيون تناول الشاي المعلب بعبوات صغيرة"شاي أبو الخيط" بينما يفضلون شاي سيلان الخشن ذي الرائحة الزكية، ويمكن إضافة مواد عطرية للشاي ليصبح شاياً معطراً منها الهيل وورق زهرة العطر، وفي حقبة السبعينيات كان للأدباء في بغداد مقهى يقع في الشارع الواصل بين السعدون وأبي نواس يسمى "مقهى الشاي المعطّر" وقد دخل هذا المقهى تأريخنا الثقافي كما في بعض الأعمال الأدبية، والمدمن على الشاي نسميه "ترياكجي" من "الترياق" ومعناه الدواء الشافي وقيل "الترياق لا يأتي إلآ من العراق" وما تزال المقولة قائمة فهل يفقهها أرباب منهج الخضوع للأجنبي والطائفية المقيتة والعقول المتحجرة الصفيقة؟.

قلنا أن للشاي طقوساً ونواميس منها أن يتم شرب الشاي بطريقة "الدشلمة" أو بطريقة "الشكرلمة" وتتلخص الأولى بتناول الشاي بدون سكر مُذاب حيث يُقدم استكان الشاي المر على طبقٍ بدون ملعقة ويقدم معه "الشكردان" الذي يحتوي على قطع سكر المكعبات مأخوذة من"شكر الكلة" ذلك المخروط السكري الأبيض الصلب الذي يتم تكسيره إلى قطع صغيرة توضع في الشكردان يضعها الشارب تحت لسانه ويستمر لفترة يرتشف خلالها رشفة شاي مر مصاحبة بمصٍ بطيء لقطعة السكر،ومازالت هذه الطريقة قائمة في بعض مدن وقرى شمالنا الحبيب، وفي أيام العوز والضيق والحروب كان الفقراء يضعون تمرة تحت اللسان بسبب غياب السكر وارتفاع ثمنه، وتتم عملية تكسير القالب السكري بعناية ودقة كي تأتي القطع منتظمة وغير مفتتة وأدواتها فأسٌ صغيرٌ وسندان مثله، وقبضة الفأس عادة ما تكون من خشب عادي أو منقوشٍ يدل هلى مستوى العائلة ويسمى "الدقاقة" بينما تستخدم العوائل الفقيرة فؤوساً عادية. وقد دخلت هذه "الدقاقة" في إحدى الروايات البوليسية للكاتبة الأنكليزية الشهيرة "أكاثا كريستي" التي كانت تصاحب زوجها عالم الآثار ماكس مالاون في منطقة النمرود وشمال العراق للقيام بأعمال التنقيب،وقد تحولت هذه الرواية ألى فيلم، ولهذا قصة طريفة مفادها أن المخرج السينمائي العراقي محمد شكري جميل كان يعمل مصوراً سينمائياً في شركة نفط العراق مطلع الخمسينيات في فيلم دعائي دوري بعنوان "العراق اليوم" وصادف أن التقت به أكاثا وهو يقوم بالتصوير فأعجبت بطريقته في العمل واثنت عليه فرد عليها محمد ثناءها بإهدائها "طخم شاي" مع دقاقةٍ ذات قبضةٍ أبنوسيةٍ مطعمةٍ، تحفة فنية، اصطحبتها معها إلى إنكلترا وأدخلتها في إحدى رواياتها حيث اترتكبت بها جريمة قتل. لقد ذكرنا سابقاً أغنية فرقة الأنشاد العراقي 1951 "خدري الجاي خدري" والحقيقة أن هذه "البستة" العراقية أقدم من عمر فرقة الأنشاد حيث غنتها في الثلاثينات المطربة زكية جورج وهناك أغنية أخرى شاعت أثناء الحرب العالمية الثانية 1939-1945 حين عزّ الشاي وفقد من الأسواق وانقطع استيراده فعمدت وزارة التموين حينها على إدخال مادة الشاي في "البطاقة التموينية" شأنه شأن الحنطة وقماش "الجيت" بالجيم المعشقة و"البيكة" بالباء المعشقة و"الكريشه" والسكر الأسمر...الخ وحينها غنى المطرب الريفي حضيري أبو عزيز أغنيته:

"دمضي العريضة دمضي العريضة
عيني يابو التموين دمضي العريضة
والحلوة على الجاي طاحت مريضة"

فما أشبه اليوم بالبارحة إذ مازالت بطاقة التموين تلاحقنا مع تبعاتها القادمات من خلف ضبابيات العقول، "داقوقة" تنزل على رأس المرأة العراقية المسيكنة التي لم تتعافى على مر العصور.